مدينة العي الكنعانية

مكتشفات أثرية كبيرة الشأن

لشيخمو صادر

عضو جمعية العاديات السورية

أخذ معول التنقيب يعمل منذ بضع سنوات على نبش أطلال المدن الدارسة في ارض الميعاد وجلاء غامض حضاراتها الدفينة . فبعد ان اماط اللثام عن اسوار اريحا القديمة وغيرها من المدن الوارد ذكرها في الاسفار المقدسة ، ها هو ذا يحسر التراب اليوم عن خرائب مدينة كنعانية ، عريقة في القدم ، تدعى العي . وهي واقعة على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً من شمال اورشليم، شرقي بيت إيل ، فوق تل نصف كروي مساحتهُ مائة الف متر مربع تقريباً ، يحيط به خندق عميق ، احاطة السوار بالمعصم، وهو يشرف شرقاً على وادي الاردن وشمال البحر الميت ثم تكتنفهُ شمالاً وغرباً سلسلة من الروابي تكاد تمنع عن الواقف عليه سائر المناظر المجاورة .

﴿ تاريخ العي ﴾ كانت العي مدينة ملكية ، يرتقي تاريخ بنيانها الى فجر العصر النحاسي القديم ، وكان فيها قصور ومعابد وقلاع وحصون وكان سكانها نحو اثني عشر الفاً وكانت تعد في مقدمة المدن الكنعانية حضارةً وازدهاراً وكان رجالها على قلتهم ابطالاً بواسل ، شهد لهم التاريخ بمواقف مشرفة ، وقد جاء في التوراة انهُ لما شنَّ الاسرائيليون عليهم اولى غاراتهم صمدوا لهم كالجبابرة وردوهم على اعقابهم بعد أن ابادوا نفراً منهم فانهزم الباقون شرَّ هزيمة . بيد ان الاسرائيليين كانوا على ما يظهر أوفر عدداً ، وأمكر حيلة وأمضى سلاحاً فلم تفت تلك الهزيمة في عضدهم بل شق عليهم ان ينذحروا امام رجال العي وهم بعد سكارى بنشوة الانتصارات التي احرزوها في عبور الاردن والاستيلاء على اريحا ، فحملوا عليهم حملة ثانية ملؤها الحنق والدهاء فتغلبوا فيها عليهم عن طريق المفاجأة والحيلة وقد جمعت هذه الحملة ثلاثين الف محارب من نخبة اسباط الاسرائيليين تحت قيادة يشوع بن نون فصعدوا الى العي وانقسموا الى جيشين ، احدهما كمن وراء اكمة غربيَّ المدينة ما بين بيت إيل والعي والآخر زحف ليلاً على شمال المدينة يتقدمهُ يشوع مع تابوت العهد والكهنة فلما صار على مقربة منها كان قد اصبح الصباح وشعر رجال

العي بدنو الخطر فتنادوا لصد الغارة المباغتة وسرعان ما تألبوا حول مليكهم وشرعوا يطاردون اعداءهم فتظاهر الاسرائيليون بالضرب والرجال العي يعدون في اثرهم حتى بعدوا عن المدينة وصاروا في بريةٍ منفسحة فثار عندئذٍ الجيش الكمين من موضعه وانقضَّ على المدينة فاحرقها وواصل سيره محاصراً رجال العي من خلفهم وكان يشوع قد اتى عليهم مع جيشه فاصبحوا كأنهم بين حجري الرحى والتحموا في موقعةٍ دموية هائلة كان النصر فيها حليف الاسرائيليين فضربوهم ضربة قاضية لم تبق ولم تذر وقبض يشوع على ملك العي حيًّا واقتاده أسيراً فعلقهُ على خشبةٍ عند باب المدينة ثم دخل العي في طليعة جيوشه ظافراً منتصراً فقتل بسائر اهلها الستين الفاً واغنم اموالهم وماشيتهم وترك المدينة خراباً يباباً فانمحى اثرها من عالم الوجود، وكانت العي أول المدن الكنعانية التي سقطت في ايدي الاسرائيليين بعد استيلائهم على اريحا

﴿ حالة العي الراهنة ﴾ هذا ملخص ما ورد في الاسفار المقدسة عن خراب مدينة العي. فبقي علينا وصف حالتها الراهنة التي اشرفنا عليها عن كثب إبان زيارتنا الاخيرة لفلسطين واضافة معلومات نفيسة اخذناها عن تقرير البعثة التي تنقب في ذلك التل

جبالٌ ووهادٌ وعرة مكسوة بحلة قشيبة[1] تحف بذلك التل من معظم جهاته حتى يكاد قاصده لا يجد طريقاً اليه، فيُخال للسائر بين تلك المروج انهُ يعوم في بحرٍ زمردي متلاطم الامواج، وعندما يطل عليه التل من علياء قممه الراسية ثم يدنو هو من اراجيه الرابضة على قواعدها الصخرية تتملكهُ روعة وهيبة فيقف امام ضخامتها مأخوذاً خاشعاً كأنها تحدثه بصمتها الرهيب عن ماضيها الجليل وعن عظمة اولئك الابطال البواقر الذين احكموا بنيانها بسواعدهم المفتولة ليقوموا دليلاً ناطقاً على مر الاحقاب على الحضارة التي صاروا اليها منذ زمن سحيق

﴿ اسوار المدينة ﴾ اول ما يسترعي النظر عند الصعود الى ذلك التل انقاض اسوار هائلة تطوق المدينة القديمة من كل نواحيها، مبنية باحجار غليظة الحجم، مصقولة من الخارج ومحكمة التماسك بمزيج تراب مع حصى. اما ضخامتها فتفاوت بحسب منعة مواقع التل الطبيعية فبينما هي في الجهة الشمالية مقتصرة على حجارة واحدة لوعورة مسالك هذه الجهة ومناعتها، نراها تضخم تدريجاً فتسلك طبقات جدرانها وتتعدد اسوارها كلما تقدمنا نحو الجهات السهلة السور حتى تشكل في الجهة الشرقية جبهة منيعة جداً بثلاثة اسوار ضخمة متتابعة[2] مما لا تقوى عليه المعدات

---

(١) صادفت زيارتنا للمكان في فصل الربيع (٢) ان عرض السور الداخلي في الجهة الشرقية ستة امتار ونصف والسور الاوسط الذي يتلوه متران ونصف والسور الخارجي متران وبين السور الاول والثاني مسافة مترين ونصف وبين الثاني والثالث متر ونصف. اما في الجهة الغربية فالسور الاوسط يزول باندماجه مع السور الخارجي الذي يبلغ عرضه هناك ثلاثة امتار ونصف بينما يتضاءل عرض السور الداخلي فيصبح خمسة امتار فقط

المدمرة حتى في هذه الايام . فيدلنا ذلك على براعة الاقدمين وتفننهم في طرق تحصين مدنهم لاتقاء غارات العدو منذ اقدم العصور

في القصر ايضاً وتحت ما تختار هذه الاسوار تسوقنا خرائب قصر فخم ذو جمال هندسة ، يبعد آية في فن البناء القديم ، وقد وجد مدفوناً تحت طبقات كثيفة من الرماد لم تمس في كثير من نواحيها مما يؤيد ان تدميره كان أثر حريق مروّع ، وأهم مشتملات هذا القصر ردهة مستطيلة مساحتها عشرون متراً طولاً وستة أمتار ونصف عرضاً متجهة نحو الشمال ، تقوم في وسطها اربع قواعد حجرية بين كل اثنتين منها مسافة اربعة امتار فيُخال انها كانت اركان دعائم سقف خشبي اذ وجد بالقرب من احداها بقايا خشبة كبيرة سلمت من ألسنة النيران . وتكسو ارض هذه الغرفة طبقة من التراب الصلب اما جدرانها فتقوم على اسس صخرية متينة عرضها متران ونيف وهي مبنية بأحجار مستطيلة . متساوية الحجم ، منحوتة نحتاً متقناً ومتراصة بعضها فوق بعض رصّاً محكماً على انهُ يظهر من قلة الأنقاض الحجرية وكثرة قطع اللبن بينها ان البنيان الحجري كان مقتصراً على ارتفاع قامة تعلوه اللبن المصنوعة على نسق الاحجار عيناً ووجدت هذه الجدران مطلية من الداخل بالملاط واكتشفت كوة في الجدار الغربي عثر فيها على كأسين تمتان بنسب الى العصر النحاسي القديم كما عثر بين الأنقاض على كسر جرار كثيرة محلاة بزخرف في اعناقها ترتقي صناعتها الى العصر المذكور . وتم الجدر المضاعفة المحيطة بهذه الردهة على انها كانت تتقي حولها اروقة طويلة من كل جهة ما عدا الجهة الشرقية التي ينفذ من باب كبير فيها الى باحة واسعة ويستدل من طراز البناء على وجود قبة خشبية عالية فوقها كان يصعد اليها على سلم خشبي لترويع النفس وجلاء النظر . اما سائر متفرعات هذا القصر فوجدت مقوّضة حتى الاركان ما لم تتسنَّ معهُ معرفة اصلها وضعاً وشكلاً

﴿ المعبد ﴾ وقرب زاوية القصر الغربية الجنوبية اكتشفت بقايا معبد معاصر للقصر بيد أن ارضه ادنى من ارض القصر حتى انهُ كاد يختفي تحت اكوام من الحجارة مكدسة بجانب القصر بطول ستة امتار . فلما ازيحت عنهُ هذه الحجارة برز للعيان وهو مؤلف من ثلاث أبهاء متداخلة على طراز المعابد السامية ويرجح ان يكون بنيانه حجريًّا بتمامه اذ لم يعثر على أثر لبن بين الانقاض . اما سمك جدرانه فيتراوح بين متر ومتر ونصف وهي متقنة الصنع ما عدا الجدار الغربي الملاصق للقلعة فهو مشيّد بحجارة غليظة غير متناسقة لكنهُ كان مطليًّا من الداخل بالملاط لجعله مستوياً مع سائر الجدران

يتزل من هذا المعبد بضع درجات الى اولى أبهائه واوسعها حجماً وهي مستطيلة الشكل بمساحة ثمانية امتار ونصف طولاً وستة امتار عرضاً ، تجلل ارضها طبقة رماد بكثافة ٨٠/٧٠

سنتيمتراً وفي طرفها مصطبة حجرية وجد عليها كثير من الاواني الفخارية . اهمها مبخرتان من الخزف ، معقفتان ، بلا عقب ، مستطيلتا الشكل بأربع زوايا في كل من اطرافها ثقب مما يدل على شيوع استعمال البخور في معابد الكنعانيين

وقد وُجدت بالقرب من هاتين المبخرتين كؤوس مختلفة الاشكال حمراء اللون وأباريق وآنية أخرى من الخزف لعلها كانت تصلح لتقدمة بواكير الخمور واللحوم والاثمار

وفي زاوية هذه القاعة الجنوبية الغربية اكتشف باب صغير يؤدي الى حجرة معتمة وجد في ارضها آثار عظام حيوانات داجنة والى جانبها نصاب سكين من عاج دقيق الصنع مفقود النصل . فكل ذلك يحدونا للاعتقاد بأن هذه الحجرة كانت مذبحاً للضحايا التي تقدم قرباناً للآلهة ، وعلى مقربة من هذه الحجرة عثر على جرة كبيرة مطمور نصفها في الارض ومطوقة بالحجارة مما يرجح ان تكون مستودع خمر او زيت . ومن صدر هذا البهو يدخل الى بهو ثان شبيه بهما غير انهُ اقل اتساعاً وجد فيه ايضاً مصطبة عليها اثنا عشرة كأساً مصفوفة جنباً الى جنب كأنها معدة لاقبال القدمة ومن زاوية هذا البهو ينفذ من باب صغير الى بهو ثالث أعلى ارضاً وأصغر حجماً يقوم في وسطه هيكل حجري صغير مكلس بطول ١٫٧٠ متر وارتفاع ٠٫٧٠ يعلوه مربّع صغير اشبه شيء ببيوت القربان في الكنائس المسيحية مبني بحجارة مطلية بالأحمر وقد وجدت ضمنه كاس جميلة حمراء اللون سالمة من كل عطب . كما عثر على اشياء كثيرة ملقاة عند اقدام الهيكل والى جانبيه كقرن وعلر وآنية من خزف بأشكال مختلفة وكؤوس من الحجر الوردي والرخام المصري تعزى الى عهد الاسرتين المصريتين الثانية والثالثة ووجد في جوار هذا المعبد خربة لم يعرف اصلها فلعلها كانت مخدع الكهنة

ولا يبعد ان يكون هيكل سليمان الحكيم في أورشليم قد نقل طرازه عن هذا المعبد الكنعاني لشدة التشابه الهندسي بينهما . فاذا صحّ هذا الاحتمال لعله كان ضالتك تشابه في الطقوس الدينية ايضاً مما يحملنا على الاعتقاد بأن البهو الكبير كان محل اجتماع المؤمنين لتناول الذبيحة والبهو الاوسط هيكل التقدمة اما البهو الثالث فكان قدس الاقداس يدخلهُ الكهنة فقط ليستوحوا معبودهم . بيد ان الغريب في هذا كله ألاّ نجد بين هذه الآثار تمثالاً او شيئاً آخر يرمز الى الاله الذي كان يُسجد لهُ في هذا المعبد الفخم

﴿ القلعة ﴾ وتلاصق هذا المعبد حصون قلعة منيعة مستطيلة الحجم مساحتها أربعون متراً طولاً وعشرة امتار عرضاً تقوم إلى جانب سور المدينة بجدر غليظة ، ارتفاعها الان خمسة أمتار ونيف غير انهُ يستدل من قاعدتها وطراز بنيانها على أن علوها لم يكن يقل عن خمسة عشر متراً على أقل تعديل وهي تتوقع بشرفات على بعد شاسع ويصلح لمراقبة زحف جحافل العدو ولصد غاراتهم

﴿ البيوت المجاورة ﴾ وحول هذه الابنية الضخمة تبدو لك بين اكوام الاتربة آثار بيوت كثيرة معاصرة لها كانت تقوم على سفح الجبل بعضها فوق بعض ، تفصل بينها ممرات ضيقة وكلها مغمورة اليوم تحت طبقة رماد كثيفة كما يتجلى ذلك من تخطيط مستدار لها على انه يستدل من انقاضها انها كانت على الاغلب مبنية باللبن ذات حجر صغيرة مستديرة الشكل ضيقة النور لقلة التوافذ فيها

﴿ المدينة في العصر الحديدي ﴾ بعد ان اتينا على بيان معظم المكتشفات التي ترقى الى اقدم عهود التي يجمل بنا ان ننتقل الى وصف سائر الادوار التي تعاقبت عليها . فيلوح من الآثار التي ظهرت ان هذه المدينة لم تعمر عمراناً كاملاً بعد تدميرها بالحريق بل دفن معظمها تحت اكوام الرماد التي لم تمس حتى يومنا هذا وبعث جزء منها بعد مدة لا تقل عن ثمانمائة سنة من تاريخ تدميرها وذلك في نواحي القصر المكتشف وجواره حيث وجد أثر جدر احدث فنًّا في بنيانها تقوم على الاسس والانقاض القديمة ، منها ما وجد مشيداً بكثرة في ردهة القصر الكبيرة وأروقته التي قسمها إلى حجر مظلمة لم تعد تصلح على ما نظن لغير خزن الحبوب والمؤن ومما يؤيد ظننا هذا وجود حفر عميقة في بعضها ينفذ منها الى دياميس عثر فيها على جرار كبيرة تستعمل عادة لخزن الزيوت والخمور المتقنة

ولدى تنظيف انقاض بنيان آخر من هذا العهد قد يكون محلاً مقدساً عثر على مبخرة كبيرة جديدة الطراز مثقوبة الاطراف ثقوباً حجة تقوم على اربعة ارجل مزخرفة بنقوش شبيهة بأصابع أرجل الاسود وبراثنها ووجد ضمن هذه المبخرة طوق حجارة منقوشة دقيقة الصنع وعلى مقربة من المبخرة عثر على آنية أخرى من الخزف يعزى طراز صناعتها الى العهد الحديدي وهي تمتاز عن آنية العصور التي قبلها بزيادة زخرفها وقربها من شكل الآنية المدنية ولُقط من بين الانقاض عدد من الحلى كالحلق والاسوار والخواتم والاقراط مصنوعة من الحديد على انهُ يبدو من خشونة صناعتها أنها لم تعد اوائل العصر الحديدي

﴿ المقبرة ﴾ ومما كشفت عنهُ الحفريات في الشمال الشرقي من التل كهوف مقبرة تمتد نحو مائتي متر عن اسوار المدينة وتمتد الى مسافة بعيدة ، عثر فيها على جرار كبيرة دفن فيها أطفال رضع اما جثث سائر الاموات فتكاد تكون مكدّسة بعضها فوق بعض بحالة سيئة سواء في زوايا مغاور طبيعية او في جرف كهوف منقورة في الصخر مما لم يستطع معه ان يعرف لوضعها اتجاه معين بيد ان الامر الذي تسنّت معرفته هو ان الكنعانيين كانوا يدفنون مع الميت أمتعته الخاصة ويضعونها على الاغلب حول رأسه اذ وجد بالقرب من جماجم الرجال كثير من الاسلحة التي كان استعمالها شائعاً في ذلك العهد من فؤوس وحراب من الشبه (البرونز) وخناجر ذات مقابض مزخرفة

كما وجد حول جماجم النساء كثير من الحلي كدمابيس مزينة وخواتم واطواق واقراط الخ . . وهذا دليل على لون من العقائد الكنعانية . فلعلهم كانوا يؤمنون بحياة بعد الموت ويزودون فقيدهم بما قد يحتاج اليه في تلك الحياة

ولم تقتصر مدفوناتهم على الاسلحة وادوات الزينة فحسب بل وجد هنالك آنية اخرى من الفخار صنع اليد مختلفة الحجم والشكل كاباريق وجناجير وقوارير صغيرة وكبيرة بعضها معتنة وبعضها بطيئة واطباق وكؤوس وطاسات وقدور بآذان وسرج كثيرة لوحظ على بعضها اثر الدخان في موضع الذبالة ومن هذه الآنية ما وجد مطليًا بالوان تتراوح بين الاحمر والكستنائي ومنها ما هو باق على لون ترابه الطبيعي وكان معظمها مزخرفاً بنقوش متنوعة وبعضها موسوماً بتماريج ثم على مبتكرات ساذجة ، على انها كانت بأجمعها تمتاز عن سائر الآنية المعاصرة لها والمكتشفة في حفريات غيرها بصغر حجمها وجيد صقلها وتنوع زخرفتها وفخومة ترابتها ولعل أجمل ما وجد بينها قارورة صغيرة دقيقة الصنع ، جميلة النقوش، حمراء اللون عثر عليها في راحة ميت ولعلها كانت رمزاً دينيًا يشير الى معنى خاص يسر عليّا تفسيره

﴿ الخلاصة ﴾ لقد أجمع علماء الآثار ، باستناد الى الادلة التي توافرت لديهم، على ان بناء سروج العي القديمة يرقى الى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . على ان الآثار المكتشفة فيها اثارت اعجابهم باتقان صناعتها ودقة شغلها وميزتها على سائر النماذج المعاصرة لها وباتت تُعد هذه المكتشفات من اهم ما عثر عليه المنقبون في فلسطين لانها أبانت مدى تقدم الشعوب الكنعانية في فنون الهندسة والصناعة والقت نوراً جديداً على حضاراتهم القديمة . كما ان وجود آثار أبنية وآنية بين تلك الانقاض احدث منها عهداً ساعد على تتبع اطوار وقي هذه الفنون قرناً بعد قرن حتى تاريخ تدمير المدينة بالحريق . اما ما بعدئذ فقد صُنّفت آثاره بين سني الالف والمائتين والالف ق . م . ثم طوى الدهر آخر صفحة من حياة هذه المدينة واضمحل ذكرها من عالم الوجود

بقي علينا قبل ختام بحثنا هذا ان نوازن بين نصوص التوراة التي لخصناها في مقدمة مقالنا والنتائج التي توصل اليها التنقيب . فبالرغم مما لمسهُ من التقارب بينهما هنالك فئة من رجالات الآثار تدحض هذا التقارب . وتعزو تاريخ حريق المدينة وتدميرها الى اوائل الالف الثانية ق . م . اي قبل دخول الاسرائيليين الى ارض الميعاد وتزعم انهُ عند وصول يشوع اليها كانت اطلالاً دارسة لذلك سميت بالعبرية العي بمعنى الخربة . ثم نسب تدميرها عند كتابة التوراة الى الاسرائيليين ودونت اسطورتها بشكل يسهل تصديقه لغربه من العقول بيد ان هذه المزاعم كلها لا تخرج عن دائرة الظن والاستنتاج فلعلّ التنقيب المتواصل بعد في ذلك التل سيبرز لنا من طي الخفاء الجواب الحاسم على هذه المزاعم ويصحح خطأ الظنون فسبحان العليم القيوم